الثامنة والنصف مساءً

قصي الشيخ عسكر

الثامنة والنصف مساءً

الروايةُ الوثيقةُ

العارف للمطبوعات

الثامنة والنصف مساءً

الروايةُ الوثيقةُ

قصي الشيخ عسكر

الطبعة الأولى 2014
القياس: 14 x 21
عدد الصفحات: 64
ISBN 978-9953-574-99-8

نشر وتوزيع
شركة العارف للأعمال ش.م.م.

بيروت – لبنان
00961 1452077
العراق – النجف الأشرف
00964 7801327828
Trl: www.alaref.net

التوزيع في الجزائر والمغرب العربي:
دار الأبحاث للطباعة للنشر والتوزيع
الجزائر – هاتف: 744281 ـ 21 (00213)
البريد الإلكتروني: www.alabhaath@.com

التوزيع في الأردن:
دار المناهج للنشر والتوزيع
الأردن – هاتف/ فاكس 4650624 00962
البريد الإلكتروني: info@daralmanahej.com

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطّي من أصحاب الحقوق.

هامّ جدّاً: إن جميع الآراء الواردة في الكتاب تعبّر عن رأي كتّابها ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر...

تقديم أوّل

ذكرتني هذه الحكاية التي صاغها د. قصي الشيخ عسكر بتوجيهٍ إلى توثيق أحداث "تؤرخ جمهورية الخوف" ساقه إليّ أستاذنا المرحوم د. علي جواد الطاهر بعيد إجهاض انتفاضة العراقيين عام 1991م حين كنت أسرد له ما وقع في الحلة إبانها فقال: "اكتب هذا فقد يمر زمان لا يتذكر أحد هذه الأحداث". ولكني لم أعمل به إذ لا أمتلك الرؤية الفنية لعرض تلك الوقائع بأسلوب يجمع بين التأريخ والأدب فاستوقفني ما كتبه هذا الرجل نصّه الذي لم يسقط بين التقرير المباشر والسرد الفني بل جمعهما من غير أن يجور أحدهما على الآخر على الرغم من ذكر الأسماء الحقيقية التي شكلت شخوص الأحداث أنا واحد منهم.

قرأت هذه (الحكاية) سمّها ما شئت (قصة) أو (رواية) لا تهمني هذه المصطلحات قدر ما يهمني أن أكون بها ومعها فاعلاً في مجريات وقائعها، مقدما لها بحرارة صدقها وفنية أسلوبها الذي لم ينزلق إلى توثيق حدث بأسلوب التصوير الفوتوغرافي أو التعبير الحرفي بل ارتفع بها إلى استيحاء رمزية (النعمان بن المنذر ويومي سعده وبؤسه) ليربط بين ماضٍ يستلهم عبرة تربوية إلى حاضر يهدف إلى أكثر من رسالة: سياسية وأخوانية واجتماعية وربما تجاوز أكثر من هذا.

ووددتُ أن أستلّ إشارةً وردتْ على لسان الأخ عبد الرضا الذي كان وراء تسجيل هذه الأحداث وصولاً إلى قلم قصي الشيخ عسكر، فاستكمل نهاية المرحوم مزاحم البلداوي إذ أسند إليّ استقبال جثمانه في مطار عالية بالأردن للمساعدة في وصوله إلى أن يدفن في وطنه فكان ما أراد.

إنّ هذه (الحكاية) التي أقدمها للقارئ بعد ثلاثين عاماً ونيّف لم تزل حرارتها تذكي في النفوس حكايات أخرى ربما أكثر دموية وخوفاً منها تستفز الاقلام لتحيلها مكتوبة في ذاكرة الأيام من أجل ألا ننسى حقبةً جعلت من المثقفين أهدافاً سائغة لأزلام النظام ولكن لم يمنعهم ذلك من أن يتوسلوا بذكائهم أن يخرقوا نظامه الأمني الصارم وعصاباته المأجورة ويتحدوا ذلك بابتكار وسائل غير مألوفة.

أشدُّ على يدي الأخ قصي الشيخ عسكر شفافية عباراته وسهولة تناوله وفنية صياغته، والفضل كل الفضل لأخي وزميلي العتيقِ الناقدِ الأستاذ الدكتور عبد الرضا عليّ الذي كان سبباً وراء هذا كله في ذاكرته الوفية، والدعاء بالمغفرة والرضوان لبطل هذه (الحكاية) الدكتور مزاحم أحمد البلداوي.

وأخيراً أقول: إنَّ وقائع أخرى تنتظر من يصوغها ما زالت تختزنها الذاكرة المُرّة لعلّ فسحة من العمر تسمح فنعرضها أو يعرضها الآخرون.

أ. د. سعيد جاسم الزبيدي

مسقط الجمعة 23/ 8/ 2013

تقديمٌ ثانٍ

تُشيرُ هذهِ الروايةُ/الوثيقةُ إلى صورةٍ واحدةٍ من آلافِ صورِ الخوفِ التي عاشها العراقيّون الذين رفضوا أنْ يُمسَخوا أرانبَ (يقضمونَ جزرةَ الجلّادِ خوفاً من سوطهِ، أو رغبةً في نوالِ مكارمِهِ)، واختاروا أنْ ينأوا بأنفسِهم عن السُحتِ الحرامِ المدافِ بالمذلّةِ، والشعورِ بالدونيّةِ، وظلّوا محترِسينَ من أزلامِ جمهوريّةِ الخوفِ طوال سنيّ ارتباطهم بمؤسّساتهم العلميّةَ (الجامعيّة) التي عملوا بها.

ومعَ أنّهم كانوا حذرينَ، ويسيرون (كما تقول الحكمة الشعبيّةُ) قربَ الحائطِ، إلّا أنّهم لم يسلموا من ضير النظامِ الدكتاتوري وعَنَتِهِ، فكان قدرُ بعضِهم أنْ يكونوا من ضحاياه دونما ذنبٍ أو جريرةٍ؛ وهذا ما حصلَ لأستاذِ الأدبِ الإسلامي في جامعةِ الموصلِ مزاحم أحمد عبد البلداوي الذي دارتْ أحداثُ هذه الروايةِ على معاناته بعد قيامِ جهازِ الأمن المخيف بخطفه من الجامعة في أثناء امتحانات الفصل الدراسي الثاني من العام 1982م.

كان بعضُ أصدقائنا المخلصين ممّن اطّلعوا (بعد لأيٍّ من الزمن) على مغامرتنا في تهريب الصديق (السجين المريض)

مزاحم البلداوي من المشفى إلى حيثُ تقيم أسرتُه (في إحدى شققِ مدينةِ الحريّة، والعودة به إلى المشفى في فجرِ اليوم التالي) يسألوننا سؤالاً ربّما لا يزال يدورُ في أذهان بعضهم حتى يومنا هذا : هل كنتما تمتلكان شجاعةً أسطوريّةً جعلتكما تقدمانِ على تلك المغامرة الخطيرة في زمن الطغيان والدكتاتوريّة؟

وكنّا نجيبُ: لا.. لم نكن نمتلكُ تلك الشجاعة، إنّما كان وراءَ تلكَ المغامرة شيءٌ آخر يسكنُ أعماقنا دون أن نكون قادرين على تحديد ماهيّته، وهذا الشيءُ هو الذي حرّكَ فينا هذا الدافع، وجعله قراراً حاسماً غير قابلٍ للتردّدِ، أو التراجع، وبهِ سجّلنا موقفنا الرافضَ للقمعِ الذي مارسته جمهوريّة الخوفِ ومنظّمتها السريّة في أيّامِ المحنةِ التي أطبقت على العراق والعراقيين.

وإذا كنتُ (شخصيّاً) أفتخرُ بتلك المغامرة التي شاركني فيها صديقي الدكتور سعيد جاسم الزبيدي وأبدي شيئاً من التجلّدِ في روايتِها، فإنّني حين أقرأ ما كتبه صديقي الشاعر الكبير يحيى السماوي عن حكايةِ الرجلِ الطائي مع النعمان بن المنذر (التي مهّدت للكشفِ عن هذه المغامرة في ص: 168 من كتاب : (الدكتور عبد الرضا عليّ رحلة متوهّجة في فضاء النقد والدرس الأكاديمي) لا أقوى على منع الدموع من ملء مآقي عينيّ المتعبتين، لأنّ يحيى السماوي استطاع أن يقطّع نياط القلب في صياغة نصٍّ فنّيٍّ لا يقدرُ على صياغته سواه،

لكونه يعجنُ اللغة عجناً فيصوغ منها المدهش المؤثر في القلوب والعقول، ومن يريدُ التأكد من قطعيّتي في هذا الحكم عليه بقراءة تلك الحكاية.

أخيراً أقولُ: شكراً لأخي المبدع الدكتور قصيّ الشيخ عسكر على هذا العمل السرديّ الجميل، فقد استطاع أن يحوّل سيرة أيّام محدّدة ارتبطت بمغامرةٍ تسجيليّة واقعيّة إلى عملٍ فنّيٍ درامي لا يخلو من غرائبيّةٍ، وإدهاشٍ، وإثارة.

مع عظيم الامتنان لأخي أبي ميثم الأستاذ أحمد الجواهري (صاحب دار العارف للطباعة والنشر) على موقفه الداعم.

أ.د. عبد الرضا عليّ

كاردِف - بريطانيا

29/ 8/ 2013م

مدخل الحكاية

من قبل ومن بعد

«هل يعيد الزمان نفسه؟»

في ثمانينيات القرن الماضي عاش ثلاثة أصدقاء جامعيون في مدينة الموصل، كلهم يحملون شهادة الدكتوراه. . . وكانوا من قبل قضوا أربع سنوات طلابا في كلية الآداب بجامعتي بغداد والمستنصريّة، وعندما حلوا في الموصل كان اثنان منهم يختص في الأدب العربي وثالثهما في علوم اللغة، ويدرّس في القسم نفسه مع صديقيه الآخرين:

الأول رضا[1] من بغداد صاحب قصتنا هذه.

والثاني مزاحم[2] من قضاء بلد بتكريت

وثالث الثلاثة سعيد[3] من قضاء المحاويل في محافظة بابل.

غير أن الراوي إذا رجع إلى الماضي البعيد يجد أنه قبل ثلاثة آلاف عام في الحيرة يوم كانت عاصمة العراق عاش ثلاثة نفر على وفق الرواية :هم النعمان بن المنذر الملك الذي كان له يومان: يوم نحس وسعد قبل أن يتيه ذات يوم في الصحراء فيكاد يهلك من الجوع والعطش لولا أنْ ضيّفهُ بدوي

وأكرمه، ومن سوء حظ البدوي أن زار النعمان في يوم نحسه، فقرر قتله، ولم يكن بمقدور البدوي أن يوصي أهله لولا أن كفله شخص يدعى شريكاً، فذهب ورجع[4] . . . ".

وبين ذهاب البدوي ورجوعه

كانت روح الكفيل تزهق كل يوم مئات المرات

والقصة ذاتها يمكن أن نقرأ لها شبيهاً في أخبار القرن العشرين مما خطه شخصها الأول " رضا " من ذكريات كتبها في بعض من مذكراته أو حكاها أناس عاصروه!

ذكريات كثيرة . . .

تتناثر في أفكار كتبها على قصاصات ورق

وبعضها في ذاكرته يرويها لأصدقائه المقربين بشكل طرفة أحيانا أو مشهد حزين يمليه ظرف خاص..

وهو مازال يحكي

ومازلنا نسمعه كل يوم

1

التيـه

«توغل الملك خلف طريدته فتاه
في الصحراء وكاد يقتله العطش
والجوع حتى لاحت له خيمة
بدوي عن بعد..؟»

صديقي العزيز مزاحم

إذاً.....

ليس من العجيب أن نلتقي ثانية بعيداً عن بغداد في يوم ما... يوم مختنق بغصة الماضي مشرق ببعض الأمل... بل نحن الثلاثة أنا وأنت وصديقنا سعيد الزبيدي كان يمكن أن نواجه مصيراً أسود في ذلك اليوم بعد أربعة أعوام من إطلالتك علينا خلال رقادك في المشفى.

تلك اللحظة - لحظة الحديث عن زيارتك - نظر إليّ سعيد بوجه ذابل وقال:

إذا كنت أنت بالذات تحب أن تواجه مصيرك التعيس فلم تورطني معك؟

رددت عليه بسخرية مرة:

هذه ضريبة الصداقة ياسيدي أنا الآن مطمئن أني لن أعدم وحدي!

أجل هذه الجملة اختصرت خمسة عشر عاماً قضيتها في جامعة الموصل... عقداً ونصفاً والحق إنها اختصرت عمراً بكامله...

لكن... قد تكون الأعوام مابين 1978 و1992 من أكثر الفترات خصباً في حياتي بيد أن الأكثر سطوعاً منها كانت السنوات الأربع التي غبتَ فيها عن صديقيك الحميمين رضا وسعيد الذي يجلس أمامي الآن مذهولاً شبه شارد... يحاول أن يكظم ارتباكه بين مصدق ومكذب...

- رأيتُهُ... رأيتُهُ... هكذا قالت لي عبر الهاتف!

يسمع بك وعيناه شاردتان تبحثان عنك... تتلاعب به فكرة ليجرفه هاجس لقد أيس من عودتك تماما... كلنا أيسنا...

أنا واحد من الذين آمنوا بموتك... وربما وحدك تعرف إلى أين تسير... أظنك أدركتَ وأنتَ بعيد عنا أنك إما تنجو ويطلق سراحك فتعود إلينا، أو أن تعصب عيناك وتوثق يداك، ثم يمر بك أحد الذين خطفوك فيصوب مسدسه نحو رأسك...

لم يكن مصيرك إلا واحداً من هذين الاحتمالين أنتَ لست بنائه في مكانك المجهول يقتلك الجوع والعطش ومن

بعد تأتي جوارح وكواسر تلتم على هيكلك العظمي... بل تعلم حقاً إلى أين تسير وأنتَ موثوق في مكانك أما نحن فكنا نمارس التيه كل يوم... نأكل... نشرب... ننام..نذهب إلى العمل... نهتف... نزعق... نخرج في مسيرات... نطالع الصحف... نشاهد التلفاز ولانعرف إلى أين نسير... بالضبط كشخص ظل طريقه في الصحراء فكاد يقتله الجوع والعطش على أمل أن يجد بصيصاً يطل عليه من نفق التيه... والشاهد الوحيد على ضياعنا أننا تصورناك ميتاً... أيّسنا منك، ثم فجأة أشرقتَ علينا مثلما لاحت لتائه الصحراء خيمة بدوي عن بعد... فشككت أن تكون سراباً بدا لعيني من بعيد...

إنك حي...

ابتعد المسدس عن رأسك ...

فما أراه ليس هو بحلم

والحق أيها الصديق العزيز - إن قضيتك جعلتني أرجع طالباً... شاباً نشطاً يدرس في معهد المعلمين بحيّ " الأعظمية"يوم رحنا أنا وسعيد ويعقوب الخميسي نمارس وجماعة من الطلاب معنا هوايتنا في التمثيل... قبل أن نلتحق بالجامعة... نكتب التمثيليات القصيرة ... نخرج المسرحيات... نرتقي خشبة المسرح في حين تجلس مع الطلبة المتفرجين ... تصفق لنا... أو تبدي بعض ملاحظاتك!

ولعلك تذكر أنه في إحدى الأماسي كان على زميلنا سعيد أن يؤدي دورا في إحدى المسرحيات وقتها شاء سوء الحظ أن يرافقه فأصيب بالحمى ولكون دوره مهما يوازي دور البطل الذي أديته أنا فقد سارع صديقنا " يعقوب الخميسي" إلى اعتلاء خشبة المسرح ليؤدي الدور ذاته فكاد يفقد فيه بعضاً من أسنانه!

تلك اللحظة . . . لم يكن الخطأ خطئي مثلما فعلتُ معك داخل ردهة المرضى وأنت ممدد على السرير تنتظر طبيبك المختص المزعوم. . .

الليلة الأولى للعرض والثانية مرَّتا بسلام ويعقوب يؤدي دوره ويتقن بحيلة بارعة تجنب خده لصفعتي . . . كنت أجيد دوري بإتقان وأنا أتقمص دور رب العمل أو الشخص الفتوة أما في الليلة الثالثة فكادت تحدث كارثة. . . ، كنت أؤدي دوري كما قال يعقوب فيما بعد بحرفية عالية. . . تباطأ في رفع يده.و بدلاً من أن تقع راحة يدي على باطن كفه جاءته صفعة قوية حقيقية ذات صوت واضح دار في القاعة الغاصة بالجمهور الصامت الذي راقب الحدث باهتمام،فشقَ أحدُ أسنانه جدارَ الحلق من الداخل وأخذ الدم يسيل من فمه فانفجر الجمهور بالتصفيق لمدة طويلة حيث ظن الحاضرون أن هذه بدعة بدم اصطناعي من المخرج، مع ذلك لم يغادر المسرح بقي إلى أن أتمَّ معي المسرحية حتى النهاية.رحت أغتنم فرصة الذهول التي اجتاحت جسد صديقنا (يعقوب)

وأتخيل "سعيداً" بدله بخاصة هذه اللحظة الحاسمة التي تعهدتُ لزوجتك فيها بزيارتك...

- أما أنت ياسعيد فقد نجوتَ من كفي وها أنا ذا أعوضك عن دور فقدته قبل عشرين عاماً بسبب تلك الحمى الملعونة التي حرمت خدك من كفي!

2

الخبـر

«لكل شخص يومان: يوم نحس ويوم
سعد فبأي من يومينا نبدأ»

هكذا جرت الأمور ياصديقي العزيز

كل ما أذكره أنه بعد أربع سنوات من اليأس بدا بصيص من خلال النفق المظلم الذي دخلنا فيه طوال تلك المدة. لاشيء سوى التوجس، والريبة والخوف، والحق أقولُ :لم تكن وقتها وحدك مخطوفاً... أنتَ في الظلمة أما نحن فكنا تحت ضوء الشمس لانحس بحلاوتها... الفصول تمر فلا نراها تختلف... قيل في الربيع تزهر أشجار، وفي الخريف تتساقط أوراق... فتبقى الأيام واحدة متشابهة مملة كئيبة... .وكم بدا الزمن ما بين الموصل وبغداد يمضي وينصهر بلا طعم سوى طعم الخوف ... المسافة تتلاشى تطول وتقصر لناظري ذلك البدوي الذي يحث خطاه قبل أن تغيب الشمس فيعدم صاحبه ... إلا أن صوت السيدة أم أحمد زوجتك اختصر كل تلك الأوقات الحرجة والمسافات البعيدة. حين حدثتني بالهاتف وهي تكاد تجهش بالبكاء:

- لقد رأيتُهُ

اعتادت أن تحدثني من بيتها في مدينة " الحريّة " إذ وجد لها أقاربها بعد اعتقال زوجها مزاحم بيتا آخر ليبعدوها عن نظر دائرة الأمن، مع ذلك اضطررنا أن نتحدث، أنا وزوجتي، معها عبر الهاتف أحاديث عامة لاتثير الشكوك تحسباً لأي احتمال:

- صديقُكَ رأيتُهُ وكلمته!

- معقول أين؟

- إنه هنا في بغداد.

- عندكم في البيت؟

- لا في المشفى.

- أية مشفى

- ابن النفيس

أعرف مكانها بالضبط بحكم ترددي على اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين القريب منها. وقتها لم تثر فيّ - لاهي ولا أية مشفى أخرى - بكل أطبائها ومرضاها وممرضاتها الجميلات أي انفعال سوى خاطر بعيد أتجاهله لمرض ما قد يداهمني ذات يوم. إنك في مشفى ابن النفيس يعني أنت حي.كدت أنفي ماسمعته أذناي،فلا رجاء بالعودة لمن غابوا في أقبية الخوف، ولم نألف أحداً رجع من متاهات الزنازين

المجهولة. مزاحم هنا في بغداد. صوت زوجتك يرتعش كأنه قادم على جناح حلم انسل معك من النفق المظلم الذي سطع منه البصيص.لقد تماسكت ولما أدخل مرحلة التمثيل بعد، حقاً مفاجأة غير متوقعة جعلتني أخادع عام 1982 إلى قبل أربعة أعوام خلت حين كنتَ أستاذاً معي في جامعة الموصل.ربما هو القدر نفسه جعلنا ندرس في بغداد ثم تفرقنا لنيل شهاداتنا العليا ومن بعد التقينا بعيداً عن بغداد بقسم واحد... الشيء الغريب أنك في خضم أجواء التشكيك وفي أثناء امتحانات نصف السنة للعام 1982 اختفيتَ ومعك أوراق طلاب قسم اللغة الإنكليزية... واختفتْ سيارتُك من رحبة العجلات... اختفيت بشكل مفاجئ... كما تتلاشى الأشياء الحلوة والأحلام الجميلة... لا أحد قط يريد أن يصدق أنك رجل خطر على الدولة... ماحدث مفاجأة للجميع. قيل جاء رئيس القسم وهمس بأذنك كلمة ما ثم غادر قاعة الامتحانات، فانتظرت برهة وخرجت.

لاشيء غير ذلك!

والخبر مفاجأة لنا ولكل معارفك!

هل زل لسانك في مكان عام؟ أم هل تحديت أحد رجال السلطة في موقفٍ لايقدر المرء أن يكبح جماح غضبه فيه؟ أم استجارت بك طالبة مثلما حدث لصباحة الكردية التي استجارت بي ذات يوم من طالب له نفوذ فذهب بك تقرير مسموم من شخص ميت الضمير إلى مهاوٍ بعيدة لاقرار لها...

جائز... فهذا زمن العجائب الذي ربما تستطيع فيه الكلام تماثيل الشوارع ... ونصب المتنزهات... ولعل الحذر لاينفع مع حيطان أصبح لها آذان... تأويلات كثيرة جرفتني وهواجس استبدت بي أقربها إلى العقل أن أحد الطلاب من طلبة الاتحاد الوطني وشى بك لغاية في نفسه ... استعرضتُ في ذهني جميع الطلبة وأسماء بعض الموظفين ممن يتوسلون إلى الجامعة عن طرق التقارير والأخبار غير أنه لم يكن لديَّ أيُّ دليل... والوقائع نفسها تشير إلى أنك مارستَ حياتك الجامعية كما نعرفها - نحن الاساتذة - بصورة روتينية فليست هناك من مشادة أو تطاول من طالب حزبي وإلا لكنا قد عرفنا الأمر من قبل...

بعض القلق راودني، فقد تكون ذا نشاط سريّ كما يزعمون فتقع التهمة المنسوبة إليك على أقرب أصدقائك المحيطين بك وسوف نكون أنا وسعيد أول من يشار إلينا بالبنان!

ولما كنّا نحن الثلاثة مدعوين عند رئيس الجامعة الدكتور محمد مجيد السعيد[5] فقد فكرتُ مفاتحته بالأمر. قلتُ لصديقي سعيد: إني أحترم هذا الرجل*، فلم تستطع المنظّمة السريّة من جعله مخبراً على الرغم من كونه من مدينة الرئيس، ويحظى بامتيازات خصته بها الدولة، كل ذلك شجعنا على مفاتحته بأمر اختفائك، فبدا على ملامحه قلق عميق، ورفع سماعة الهاتف يتصل بمديرية الأمن، فأنكر المدير أية علاقة

أن اثنين من عناصر دائرة الأمن التي يديرها ابن عمتك زارا ضابط أمن الكلية[7]، واصطحباه إلى القاعة الدراسيّة التي كنتَ تراقبُ فيها الطلاب الممتحنين، وإذ سألتهم هل من شيء ردا بجفاء إن تلك مسألة لاتخص أحداً... فرجاهما الضابط أن ينتظرا عند مرآب الجامعة تحاشياً لأي فضول، واصطحبك إلى سيارة الأمن حفاظاً على كرامتك...

ثم حدث الذي جرى...

اختفيتَ أنتَ وسيارتك!وبعض أوراق الطلبة الممتحنين التي كانت في حقيبتك من الوجبة الصباحيّة!

غبتَ عن الوجود كأنك لما تولد بعد أو لم تك من قبل!

كان هناك خوف في عينيه ورغبة تتنازعه بين صمت يضعه بدرجة موظفٍ صغير عند الدولة فيقر قانعاً بوظيفة إدارية قبلها على مضض فيدعي أمامنا أنه لايعرف شيئاً أو كلامٍ يكسر به المحظور في الأقل أمامنا نحن زملاء المهنة ... مهما يكن فللكلية حرمة تستمدها من مركزها ودرجة أساتذتها وقد أقسمنا أمامه أننا لن نذكر الأمر لأحد...

وثق بنا ووثقنا به في وقت ضبابي لا يثق فيه أحد بأحد...

كان ابن عمتك كاذباً حين ادعى أنك لستَ في دائرته، والحمد له أنهم أبقوك في المجهول على الرغم مما تعرضتَ له

من تعذيب ومعاناة أدت فيما بعد إلى استفحال مرض القلب وظهور أكزما بجسدك ولم يقتلوك ويرموك في أحد أزقة الموصل الضيقة فتسري بعدئذٍ إشاعة تقول: إنَّ جماعة اختطفتك فقتلتك لثأر عشائري أو غسلاً لعار!

غير أني لا أريد أن استبق الأحداث... إذ لابد أن أذكر لك أن زوجتك بقيت في الموصل بعد غيابك أربعة أشهر فاتفقتُ مع سعيد وبعض أساتذة الجامعة ومنهم الدكتور طارق رئيس القسم الذي كشف لنا المحظور من خبرك أن نجمع لها مبلغاً يغطي إيجار الشقة ونفقات العائلة. أربعة أشهر، وهي لاتعرف عنك أي شيء حتى حدث ذات يوم وزار منزلك في الموصل أحد أبناء عمومتك،وعرف منها أنها تتسلم مبالغ عن طريقي فجاءني ملوحاً بالشكر والموت معا. رجل في الخمسين من عمره قد أكون نسيت اسمه ... استقبلته في منزلي فشكرني وأطرى،ومدح ودعا وقال معقباً :

- في نفسي أن أقابل مسؤول التنظيم لابدي شكري له!

فتطلعتُ فيه ملياً وقلتُ:

- أي تنظيم هذا؟

فقال بسحنة جادة:

- إنك تدفع لأمِّ أحمد مبلغاً كل شهر يغطي إيجار الشقة ومصروف البيت من طعام ونفقات الأطفال وماء وكهرباء.

فضحكتُ ضحكةً تنمُّ عن الخوف وقلتُ لقريبك!

- كل ماهنالك أن بعض النفر... أنا وسعيد وعنيّد، وبعض الأصدقاء نجمع كل شهر من رواتبنا مبلغاً تسلّمه زوجتي لأمّ احمد، لكوني أقرب أصدقاء مزاحم إليه ولكون أصدقائه الآخرين لا يرومون إحراجها.

فنظر إليَّ ببعض الامتنان، وقرأت شيئاً من الأسف وربما الضيق، وقال بعبارة صريحة:

- إذا كان الأمر قضية مساعدة فيمكنني أن أرجع لكم المبالغ التي أنفقتموها، فنحن لانقبل مساعدة مادمنا غير محتاجين.

قلت بشيء من الضيق:

- يمكنك إرجاع المبالغ إلى الأساتذة الآخرين إن وافقوا أما أنا فلا أقبل لأنني أقرب أصدقاء مزاحم إليه ولأن عائلته ترتبط بصداقة حميمة مع عائلتي !

وفي اليوم نفسه رحلتْ عائلتك مع قريبكم ولم يكن هناك من لقاء بيننا إلا عبر الهاتف وكنا نتحفظ في أحاديثنا دائماً... كل ما هنالك أننا نعرف أنك موقوف ربما بسبب انتمائك لتظيم سري وهذا مالم نكن نصدقه ولعلك تعرف أنك موقوف في مكان ما لاتبصر فيه الشمس ولايطل عليك الضوء. حساب الزمن مفقود عندك. الأيام تتساوى مع الشهور والسنين... غير أننا لانعرف أين أنت مع ذلك نعد الأيام والشهور والسنين...

نحن فقدنا المكان وأنت أضعتَ الزمن. . . .

فكيف نلتقي إذاً؟

سوى أني اليوم صديقي العزيز مزاحم عرفتُ سر اعتقالك!

كانت زوجتي تزورُ أمّ أحمد كل يوم تقريباً، فتلتقي بزوجتك، وأطفالك، ولاخبرَ تأتيني به عن سرّ غيابك. . . أين أنت ولأي أمر اعتقلوك. . . وبعد أربع سنوات تلمسنا رأس الخيط. . . كانت طيبتك وعفويتك هي ما دفعهم إلى الشك بك بل أكد لهم جريمتك. . . لم نكن نعرف أن بعض العلاقات الإنسانية تودي إلى الهلاك. . . الأمانة. . . الصدق. . . الشرف. . . الأخلاق كلها تختفي في جمهورية الرعب ويحل بدلها الشك. . . وإلا فأنت بحكم مكانتك الجامعية لابد أن تعرف طبيباً جراحاً أو أن تمد يد العون للفقراء إذ أنك صهر رجل غني ملاك أراض وصاحب معملٍ لصنع هياكل السيارات. . .

كل تلك المعاني لاتريد الدولة أن تفهمها

ولايُعنى بها عناصر الأمن في دولة الخوف.

3

حزٌ مكبَّلٌ

«إني أسمعُ بك حياً لكنك كنتَ
طليقاً وسجيناً متهماً وبريئا»

لاشك إنني - مع الخبر الجديد - رحت أقود السيارة بسرعة غير عادية... الأمر الذي جعل "أم رافد" التي كانت تجلس جنبي أن تنبهني إلى زحمة الشارع. كان ذهني شارداً... سارحاً معك وفي سر غيابك وتخيلك حياً وقد ظنناك ميتاً من قبل... وحين وصلنا وجدنا زوجتك "أم أحمد" ترتدي الملابس السوداء... سألتها مستبقاً كل حدث:

- منذ متى ومزاحم في المشفى؟

أجابت بصوت يخيم عليه التهدج:

- منذ أكثر من أسبوع.

وقالت "أم رافد وهي تشير إلى ملابسها":

- ماهذا إذاً؟

تلك تخصّ حزني على أقاربَ لي، وعلى نفسي أيضاً... فأنا ميّتةٌ حيّة... هكذا هي ياصديقي الأخبار في

جمهورية الخوف تأتي دائما متأخرة بعد سنوات من نظنه مات يبرز فجأة حياً، ومن على قيد الحياة يغيب ويموت. . . رجال الأمن الذين استدعوا أم أحمد وبشروها بخبر رقادك في المشفى وسمحوا لها وحدها بزيارتك، وارتضوا أن يمر بك طبيب فقد حملوا إليها غراب نوح في جعبتهم وهم يعلنون عن خبر وفاة الطبيب،والمريض المعوّق اللذين كانا سبباً في هذا الاعتقال. لكنهم نصحوها ألّا تذكر لأحدٍ شيئاً عنك! وكان هناك آخر سؤال اطرحه عليها:

- ومتى عرفت!

- منذ ثلاثة أيام !

- هل زاره الأولاد؟

- سمحوا لي وحدي فقط والطبيب المختص بزيارته، وأضافت وهي تلتقط صوتها بين الحزن والبكاء" لقد سأل عنك وهو مشتاق إلى رؤية الأولاد!

- أنا أعرف الدكتور مزاحم جيداً منذ كنا في الجامعة أيام الدراسة،ليس شيوعياً ولاقومياً، ومن المحال أن يكون من تنظيم سوريا، وإن كنتُ لا أستبعد أن يكونَ متديّناً ليس غير فكيف لبسته التهمة وهل كان يغطي على كل ذلك؟؟؟ أمر محير!

قلت ذلك نافثاً الهواء من رئتيّ ولم أكن لأشكّ بك.

- أبداً أنا ايضاً التبس عليَّ الأمر في البداية،كل ما في

الأمر أن الحاج والدي يعرف الطبيب الجراح "كامل النوري" والتفتت إلى أم رافد مؤكدة: لقد ذكرت لك أن الوالد يراجع عنده!

- أظنك كررت لي أكثر من مرة عن هذا الطبيب!

- كان الحاج يراجعه لفحوصات القلب الدورية وبحكم التردد على العيادة أصبح من زبائن الدكتور وربما أشبه بصديق، وفي يوم حدّث الطبيب كامل أبي عن مريض فقير يراجعه بحاجة إلى كرسي متحرك، ثم ليكتشف الأمن أن هناك شبكة لتنظيم سري ومعاقاً تبدو عليه سمات الفقر...

وقالت "أم رافد" وكانت تنصت مثلي باهتمام لحكايتها:

- كيف ترك التنظيم السري المزعوم المعاق التابع له يشحذ؟... لعلّها تهمة.

ردت بيأس تشوبه تنهيدة طويلة:

- ذلك من سوء حظنا!

فقلتُ موضحاً:

- النضال ضدّ الدكتاتوريّة لا يقتصر على الأصحاء... من يدري!

وسألت أم رافد وكأنها تسمع حكاية من حكايات الأحلام:

- لكن ماعلاقة الدكتور مزاحم "وبحماسة استدركت" ألأنه صهر الحاج والدك؟

- لقد كان والدي يعمل بحسن نية وهدفه الأجر والثواب فطلب من مزاحم أن يصطحبه إلى محل قرب أسواق "في منطقة المربّعة" لشراء الكرسي وتقديمه للمعاق حتى أنه ذكر للأمن في أثناء التحقيق إنه لم يشتر الكرسي بل كلف صهره بذلك!.

المضحك المبكي، أو المبكي المضحك... آخر مايهتدي إليه العقل من تناقض هذا الزمان... وخيمت لحظات صمت كأن كلا منا ينتفض من كابوس أطبق على أنفاسه... فعدت أسأل ثانية:

- كيف هي ظروف الحراسة من حوله؟

- هناك شرطي مسلكي من دائرة الشرطة يجلس عند ردهة المرضى الذي يرقد فيه مقيداً إلى السرير، وقد اكتشف أن الحارس من المدمنين تفوح من فمه رائحة العرق في الصباح الباكر. كان أبو أحمد سخياً معه، فكان ذلك الشرطي حالما يتسلم أجر عرقه مضاعفاً منه يقول بابتسامة: مريض بالقلب... أين يذهب إذا ما هرب... لا أظن أنه يرغب في أن يموت... فهنا الدواء والعلاج... هذا إذا كان مريض القلب قادراً على الهرب... ولعلها الشفقة تدفعه أو الخجل فيقصد السرير ويفك أغلال أبي أحمد ويقول لك: سأعود إليك غدا الساعة السادسة صباحاً... أتراهنني على أني أجدك هنا!

أتدارك الوقت حتى تحين الساعة الثامنة. الوقت طويل بطيء كالسم. فكري مشغول بالصديق "الزبيدي". قد أغض النظر لحظات عن الواقع المخيف وألجأ إليه مداعباً... لابد أن أستدرجه غداً بعد أن أزورك... وجوده معي يجعلني أشعر براحة ما... أطرد الخوف قليلا عني. قلت كأنني أراه شاخصا أمامي... إذا أخطأ الممثل الثانوي فسيلحق بنفسه الضرر غير أن البطل إذا أخطأ ذهب الاثنان كلاهما في ستين داهية!

كانت هناك همهمة ما وحركة انتشلتني من حلم اليقظة الذي أبى إلا أن يقتحم عليَّ خلوتي فوقعتْ عيناي على " أم رافد" وهي تضع عليَّ شرشفاً وتعقب:

- هنا في الصالة قد تصاب بالبرد!

- لم أنم بل مجرد استرخاء.

- أظنك غفوتَ وصدرتَ عنك همهمة !

ثم تلتفتُ إلى السماعة الطبية التي مازالتْ فوق أذني وتتساءل:

- هل هناك من شيء؟

- أبداً، استعرتها من صديق طبيب فبعض الطلاب في الكلية ممن يؤدون دوراً تمثيلياً بحاجة إليها.

ولم اشعر بالذنب لأنني لم أكذب عليها قط سوى أني حاولتُ أن أهربَ ثانية من بعض الوساوس إلى النوم فعجزتُ!

5

لقـــاء

«سأجد صاحبك النعمان جالساً عندك
وبيده كأسه وقد فك أغلالك ثم قال لك ابق
هنا حتى أعود إليك ولا تمض فلا تعجب إن
همَّ بقتلك في الصباح»

هكذا جرت الأمور...

صباح ذلك اليوم عزيزي مزاحم طلبتُ من "أم احمد" هاتفيّاً أن تسبقني إلى المشفى "قرب ساحة الأندلس". حيث نلتقي هناك لتقودني إلى ردهة المرضى التي تضمّك مع بعضِ المرضى من السجناء. وضعت في بالي كل الاحتمالات، ولم آمن شر التلفون قط واحتطتُ أكثر فأوقفتُ سيارتي بعيداً عن ابن النفيس، وترجلتُ لأقطع مسافة ليست بالقصيرة

لما بلغت المشفى انقبض قلبي قليلاً... تخيلتُك على السرير القريب من الباب وثمة أغلال جنبك. وراودني انشراح لاحدود له حين ابصرتُ "أم أحمد" تنتظرني...

سارت أمامي ببضع خطواتٍ تحث الخطى إلى الردهة التي أجهلها...

حفظتْ دورها تماماً... ظننتُ أن طول قامتي وقصرها جعل من يمرّ بالردهة يظنني طبيباً حقاً... كانت ردهتكم في الطابق الأول. هي المرة الأولى التي أدخل فيها مشفى ابن النفيس... كادت قدماي تطآن المكان أمس لولا وازع لاأعرف سببه... الشرطي غائب تماماً وأنتَ حرٌّ من أغلالك... ولمحتْ عيناي أسرة لخمسة عشر مريضا ثم تحولتا إليك حيث تقف زوجتك. كنت تجلس نصف منتصب... كتفان يلتصقان بحافة السرير، ويغطي شرشف أبيض جسدك إلى المنتصف... كنتَ تكبتُ رغبة تجتاحك لعناقي.أول لحظة تمثيل لك تواجه بها الحياة... بدوت لي ممثلا كبيرا ... رحت أحاول أن أخضع انفعالاتي لبرود مفتعل، فتشاغلتُ باللوحة عند حافة سريرك وبين ومضة وأخرى أرفع ناظري ألمحُ وجهك الذي بدا كخرقة صفراء من الأعياء. كنتَ قبل سنة من غيبتك تحدثنا عن بوادر لمشاكل في القلب... والطبيب "كامل" الذي وجد نفسه يدخل معك في الغياب... قلبتُ أوراق اللوحة ثم اقتربتُ منك أجسُّ نبضك... كأنني بتلك الحركة اعانقك عناق اللقاء... بعد أربع سنوات لألمسَ ساعدك... هو ليس بأضغاث... ولعله لم يك تمثيلا... تمعنتُ في قصاصات ورق استللتها من جيبي... تطلعتُ في عينيك، وأطلتُ النظر قليلاً - وأنا أهز رأسي وأضيق مابين حاجبي - بجدول علاجك مبديا بعض الاهتمام... لحظات دقائق ... امتدتْ يدي إلى السماعة ووضعتها على أذني... أسفل اذني،ولامست بطرفها أسفل صدرك... كان هناك خطأ في حركتي سارعتُ في تجاوزه

. . . لم يحدث مثل هذا الخطأ معي من قبل. . . أنت الممثل المبتدئ الذي يمارس دوره للمرة الأولى. . . كان معلم المدرسة ينصت لقراءتي، فطلب مني أن أقرأ وأقرأ. . . قال لي عجيب كيف حفظت الخلدونية ولما تدخل المدرسة.ياسيدي كنت أذهب مع والدي بائع الخضار كل يوم إلى علوة الفواكه والخضار، ولم يكن عندي وقت للمدرسة لكني عندما يعود أقراني من المدرسة بعد الظهر أنصتُ لهم وأتابعُ الحروف معهم. . . إني أحفظُ القراءة والحساب، والمعلم والمدير يقولان يجب أن تنتقل إلى الصف الثاني. . . أنت في الصف الثاني. وقتها لم أكن أعرف أني اندمج بدوري في الحياة فأصبحُ وأنا طفل بائع خضار أحمي ممتلكات والدي،ولم يخطر بذهني أن أمثل دور طالب متفوق في الصف الأول حتى يقرر المدير أن أنتقل إلى السنة الثانية سوى أني في هذا الموقف ارتبكتُ قليلا أمامك فوضعتُ السماعة بعيدا قليلا عن أذني فتداركتَ الموقف فقلت بنغمة رجاء واهنة تقطعتْ معها أنفاسُك:

- دكتور الدواء الذي أضعه تحت لساني انتهى اليوم الظهر وأنا بحاجة ماسة إليه أرجوك. . .

لا أحد يا صديقي من هؤلاء المرضى انتبه إلى السماعة. . . عليَّ أن أتحدثَ باقتضاب. سيناريو أعددته وحدي سلفاً لايصحُّ الكلام الكثير فيه. . . كلمات قليلة تعادل سنوات. . . قصيرة مقتضبة تملأ نفقاً مظلماً من الشكِّ والوهم. . . عندئذ التقطتُ أنفاسي، وتظاهرتُ بالكتابة:

- لابأس ها أنا ذا أكتب لك كمية أخرى!

تشاغلتُ بالكتابة ثم قلت:

- هذه بدل الحبوب التي نفدت مثلها بالضبط !

- تحت اللسان أيضاً ؟

- أجل إن لم تتحسن سنجد بديلاً في دواء آخر

لكني قبل أن أغادر سريرك باتجاه باب الردهة، التفتُ نحو صوتٍ جاء متقطعاً أشبه باللهاث من مريض يرقد منتصف الردهة عند الصف المقابل لك:

- دكتور هلا فحصتني فأنا بحالة متعبة.

فقلت على الفور وتلك مفاجأة لم أحسب حسابها:

- لم أطلع على ملفك بعد سيأتيك طبيبٌ آخر!

بقيت "أم أحمد" عند السرير ولحقتَني إلى باب الردهة مودعاً فخفضتُ صوتي وتساءلتُ لأطمئن:

- متى يفك الحارس قيدك ويغادر مكانه!

- الساعة الثامنة حالما يتسلم مني بعض النقود!

إذاً سأنتظركَ عند باب المستشفى في الثامنة والنصف، كن مستعداً... الساعة الثامنة والنصف!

وخرجتُ من عندك وأنا أتنفسُ بعمق كأني أزيح جبلاً شامخاً من الخوف والقلق والرعب عن صدري وكنتُ لما أزل أضغط على السماعة براحة يدي!

6

بعض من أضغاث

«من يستبق الآخر نحن أم الأحلام»

لا أخفيك أن الليل - بعد زيارتي لك - جاءني بحلم غريب ظل عالقاً بذهني إلى اليوم...

وجدتني أسير في شوارع ضيقة فارغة تحيطها بيوتات قديمة تمتد في صفوف وتنطبق على الشوارع... حارة قديمة أشبه بالمتاهة التي نلقي عليها نظرة في المجلات... حتى ليخيل إليك من ضيق الشوارع وتراص البيوت أن الواقف في بيت منها خلف شباك مفتوح يمكنه أن يمد يده ويصافح أي شخص يقف أمام شباك البيت المقابل له...

سألت نفسي: كيف جئتُ إلى هنا؟ كل المحلات القديمة متشابهة في الموصل وبغداد فأين أنا؟وقفتُ أتأمل ورحتُ أفكر بالخروج من هذا المكان الذي أجهله... تلفتُ فلم يقع بصري على أي من المارة... هرولتُ لعلني أجد شارعا ينتهي إلى باحة أوسع أو فضاء ما...

أين هي الشوارع العريضة والبنايات العملاقة...

الفلك الدائرية وإشارات المرور...

آخر الأمر... لفت نظري باب مفتوح لبيت بعيد فحثثتُ الخطى إليه ومن دونما تأمل دخلتُ البيت... وجدتُ في باحته التي تطل على سماء بيضاء ذات ثقوب محشوة بالزرقة رجلاً قرب حوض جاف يجلس على صفيحة قديمة فارغة كأنها من صفائح السمنة يعلوها صدأ... نظارة سوداء قاتمة تغطي عينيه، وكان يستند بعكسه الأيسر إلى حافة الحوض الفارغ في حين راحت أنامل يده اليمنى تعبث بقلم جاف فتصدر عن تلك الحركة طقطقة مكتومة...

ووقع بصري على مسدس مرمي عند نهاية الحوض على بعد أمتار من ذلك الرجل...

بيوت متراصة... حوض ولاماء... رجل أمن... مسدس بعيد. حدثتُ نفسي قائلا: هذا قدري... تمعنتُ في الرجل فاستدركتُ أنه ضابط أمن الكليّة كنانة الجادر ... هو بعينه على الرغم من النظارة القاتمة... أنا إذاً في الموصل فكيف آتيك غدا بصفتي طبيبك؟تذكرتُ أنه قبل اعتقالك ببضعة شهور جاءتني الطالبة الكردية "صباحة" التي تدرس في الصف الرابع وشكت من أن الطالب "غزوان العاني" صرح لها أنه يحبها وأنه لايستطيع العيش من دونها و... و...

الحق أنها فوجئت بعرضه فهيَ مخطوبة من أكثر من عام...

كنت أعرف جيداً من هو غزوان العاني الطالب المتنفذ

في الاتحاد الوطني ودرجته الحزبية التي تجعل بعض الطلاب وعدداً من الاساتذة يطلبون وده ويخشون موقعه...

أنت تعرف الحكاية فقبل أن أستدعيه استشرتُكَ ولمحتُ لسعيد... كنتُ حريصاً على سمعة "صباحة" خائفاً من أن تتعرض للأذى لكن الحكاية الآن بدأتْ تنسخ نفسها في مكان آخر... متاهة لاأعرف كيف دخلتها... ياصديقي استدعيتُ الطالب فظنني أهدده... غضب وقال إنه يعرفها مخطوبة عن غير حب ... خطبة عادية... تستطيع أن تفسخها... وقال إنه يحب وما كان على تلك الطالبة أن تشتكي عندي... حاولت أن أشرح له أنها ليست شكوى بقدر ما رأت فيّ صاحبة الشأن أبا يمكن أن يؤثر كلامه فيك لكن غزوان لم يقتنع ورفع شكوى إلى ضابط أمن الدائرة يتهمني فيها أني أهنته ثم أردف تقريره الأول بآخر يدعي أني أتعمد أن أبث بعض الأفكار الدينية واليسارية ولاأمانع في تحليل النصوص الحديثة تحليلا جنسيا مما يتنافى ومجتمعنا المحافظ إلى درجة أن تلك التقارير وصلت إلى مكتب المحافظ الذي اضطر إلى إبلاغ عميد الكليّة، وضابط أمن الكلية "كنانة" القابع في بيت المتاهة ذاك الذي ساقني حظي للوقوف أمامه:

- أعتقد أن مسألة الطالبة الكردية وطالب الاتحاد انتهت فالفتاة كما تعرف مخطوبة...

فتوقف عن الطقطقة بالقلم وأطلق ضحكة:

- ليست المسألة هذه التي جئت من أجلها!

فسارعت من غير أن أنتبه:

- أما مسألة مزاحم...

فقاطعني ضجراً:

- أيضا تلك مسألة لاتهمني!

- لأي أمر إذاً استدعيتني؟

فقال وقد بهتُ لجوابه:

أنت جئتَ من نفسك ولا أحد دعاك !

كدتُ أكشفُ نفسي... فعلام قصدت الموصل ولي معك موعد في بغداد... تراجعتُ إلى الخلف... والحق أني في تلك اللحظة خشيتُ أن أستدير خارجاً فينهض من مكانه يلتقط المسدَّس على حين غفلة مني ويطلق الرصاص على ظهري ... بدأتُ أرجع وأرجع... عيناي لاتفارقانه ... وضعتُ في بالي أن أستدير وأجري بأقصى سرعتي حالما يهم بالحركة نحو مسدسه... تركته مشغولاً بالقلم حتى تلمستْ قدماي درجات الباب... فكنت أجري في الشارع الضيق...

كنت ألهث وقد جف حلقي وتيبست حنجرتي...

وكان كل شيء هادئاً... وكل من في البيت يغط في نوم عميق...

عندها حمدتُ الله على أني في بغداد وإني أستطيع أن آتيك غداً كما وعدتُك ومعي سعيد!

7

لقـاء آخـــر

«كان الجميع يذهبون بعيداً في ظنونهم
فيرون أن ذلك الرجل البدوي يذوب في عمق
الصحراء ويتلاشى مع الغروب وكنتُ وحدي
أظنك ترجع قبل أن يطلعَ الفجر»

لعلني لم أخبرك أن سعيداً الزبيدي كان في المحاويل... قصة لا أظنك سمعتها من زوجتك بعد...

لقد تمّ نقله من الجامعة إلى وزارة الأوقاف وبيته في المحاويل، بعد تقارير كتبتها منظمة الحزب في الجامعة شككتْ بإخلاصه...

لقد نقلتْ زوجته لتكون مهندسةً في سايلو بابل قرب المحاويل، فاضطر إلى ترك عمله والانتقال إلى محافظة بابل للعيش معها هناك.اتصلتُ به صباح اليوم التالي من زيارتي لك من خلال هاتف بيت أختي وطلبتُ منه المجيء إلى بغداد... كان نجاحي في المهمة صباح هذا اليوم يدفعني لأن أحققَ رغبتك في رؤية اطفالك... الحق تلاشى الخوف من نفسي... لحد الآن لم اعرف لمَ استدعيتُ سعيداً. لاشيء غير

أني في خضم قلقي قبل أن أزورك فكرتُ به لأتغلبَ على خوفي... لكن بعد أن عرفتُ المشفى والطابق ومكان سريرك وغياب الحارس الليلي لم أدر - بعد تلك النشوة من النجاح- لمَ أستدعيه ليشاركني المهمة!

كل مافي الأمر أني مضيتُ إلى بيت أختي... كنتُ أتحدثُ عبر الهاتف مع سعيد طلبت منه أن يأتي حالاً إلى بغداد... فاستغرب لكني ألححتُ عليه... منحته بضع ساعات، وعندما وصل كان القلق بادياً على ملامحه أول ما سألني هل هناك مكروه أصاب العائلة فأجبته وأنا أفتعل ابتسامة عريضة:

- سعيد هل تذكر دورك الملغى ذات يوم بسبب حمّى أصابتك فاحتله صديقنا يعقوب الخميسي لكن أقسم لك أنه هو الذي تباطأ في رفع كفه ...

فقاطعني والقلق والشرود مازالا يخيمان على عينيه:

- نحن الآن بأية حال ؟هل استدعيتني فقطعتُ كل تلك المسافة من المحاويل إلى هنا لتذكرني بدور مسرحي وكل ظني أن هناك أمراً مهماً لاقدر الله!

- بالفعل هناك مشهد تمثيلي أحتاجك فيه!

فقال بتأفف:

- يا أخي إذا كان هناك أمر هام فادخل الموضوع مباشرة وكفى مقدمات ولاتزدني قلقاً.

فتماديتُ أكثر:

- ستكونُ صديقَ البطل!

- أجدك تحاول أن تمررَ بعض الهول عليّ بالسخرية قل مباشرة هل أصاب مكروهٌ ما بيتكم أو بيت أختك؟

- لا أبداً بيتنا وبيت أختي بخير...

- إذاً علام كل ذلك الضجيج وكل ذلك الإلحاح هل تعرضتَ لخسارة مالية أو...

- أو أية أموال وأنت تعرف الحال!

- إذاً ما دهاك؟

- صديقنا مزاحم حي!

تأمل في وجهي ... تأمل كأنه تجمد... تمثال حي ينظر إلى القريب البعيد... اختلطتْ بوجهه حمرة بصفرة ودهشة ما ثم:

- هل هو في البيت لكي نزوره!

- لافي المشفى مربوط بالأغلال نهاراً حر في الليل!

- أولاد الكلب " وكأنه بين الشك واليقين "!

- هل عرفتَ سبب اعتقاله؟

- وفق تخميني هو بنظر الدولة عنصر غير خطر وإلا لما سمحوا له بالرقاد في المشفى ووافقوا على زيارة طبيب مختص له.

- كنتُ في البداية أظن أن سببَ اعتقاله خلاف مع عمادة الجامعة أو خبر كاذب من طالب في الاتحاد وقد يكون دسا من ضابط أمن الجامعة...!

- كلنا في البدء ظننا ذلك

- أبدا المسألة بعيدا عن أجواء الجامعة والتدريس ولاعلاقة لضابط أمن الدائرة بها أو طالب موتور.

- المهم كيف حدث الأمر

- يبدو أن عمه الحاج كلفه بكل طيبة قلب وهو رجل كبير السن يهمه الأجر والثواب بشراء كرسي لمعاق، وفوق ذلك مساعدة شهرية للمعاق الذي اكتشف الأمن أنه عضو في تنظيم سري فتم استدعاء الطبيب والحاج الذي أخبرهم أنه لاعلم له بنوع الكرسي بل كلف مزاحماً،وهلم جرا...

فانتشل نفسه من وقع المفاجأة وقال:

- أولاد الكلبة... وماذا أنت فاعل؟

- سأذهب إليه!

- تذهب إليه!

- نعم وستأتي معي!

- أنت عاقل؟

- نعم عاقل ونصف هل تشك في ذلك؟!

فرد بين الجد والممازحة:

- والله بعد الذي سمعته أشك. . .

- ولكي لانضيع الوقت أقول لك إن الشرطي الذي عينته الدولة على باب الردهة مسلكي سكّير عرف مزاحم علته فقدم له النقود بأريحية فكان حالما يقدم في نوبته عند الساعة السادسة مساء يبقى ساعتين ثم يأخذ المقسوم فيحل أغلال مزاحم ولايعود إلا عند الفجر والخمرة تفوح من فمه!

عندئذ قال عبارته الشهيرة :

- أنت ترغبُ في أن تعدم فلم أعدم معك، ودخل في لحظات صمت، فلم أتركه وحده يوغل في الصمت بل بقيتُ ساكتاً مثله، ثم عقب فجأة:

- طيب يا أخي إعدام إعدام ماذا تراني أفعل؟

- إسمع سوف نذهب إلى المشفى الساعة الثامنة والنصف بالضبط.انت تبقى في السيارة. . . أصعد أستطلع أما زوجته فسوف تكون مع أولادها تنتظرُ مزاحماً في شقّتها إذ نصحبه إلى هناك ثم نعود به إلى المشفى قبل السادسة صباحاً حيث يأتي خفير الليل الثمل فيربطه ليسلمه إلى حارس آخر!

وحين اتضحت الصورة لديه ردَّ بسخرية حادة:

- أي تمثيل مع الموت "وقال وهو يهز رأسه" أهناك شخص عاقل يمثل مع عزرائيل وتقول عن نفسك عاقل ونصف!

- ياصديقي مادمتَ قد فقدتَ دورك قبل عشرين عاما فها

أنا ذا أعوضك أياه . . . دور ليس فيه صفعات فهذه المرة قد تنجو وربما تواجه عقوبة الإعدام!

لم يقل أي شيء وبعد أن هدأتْ روحه وانصاعت انقاد لاقتراحي من دون نقاش.

صديقي مزاحم:

كان سعيد يدخل في صمت كلما سمع خبراً يجهله سلفاً، ثم ينتشل نفسه من المفاجأة، والحق إنه أبدى شجاعة لانظير لها وعندما وجدني أنهيتُ كل ما في جعبتي من كلام، نهض وهو يكرر قوله الشهير:

- إعدام إعدام هيا بنا إليه!

قالها بشجاعة وإصرار حتى أني ذهلتُ منه!

لقد أدى دوره بكل جدارة مثلك !

فكيف ارتبكتُ أمامك وأنا أباشر دوري؟

8

قبل الفجر أو الغروب

«يجب أن تنتهي القصة القديمة ... بالسعادة
دائما... أما نحن...»

الآن ارتحتُ قليلاً بعد أن وفيتُ بوعدي لك!

. . . لم يعد يهمني أن أسلك بك الطريق الأقرب لتصل إلى عائلتك. . . فبحكم ترددي على الموصل ومعرفتي بالطرق الأكثر أمناً التي تكاد تخلو من حواجز التفتيش وعيون المخابرات ومكامن الحرس. . . أخذتك إلى طريق أبعد يلتف قليلاً حتى أصل بك إلى بيتك كأنني جئتُ بك من عالم آخر. . . شديد الصمت كثيف الظلمة إلى دنيا جديدة عليك مليئة بالألوان والمصابيح والخدر اللذيذ. . . على الرغم مما يحيط بتلك الدنيا من يأس وقتام وحصار أو خوف وترقب. . .

كل شيء كان رائعاً. . . سعيد جنبي وأنت في المقعد الخلفي تسندُ رأسك إلى حافة المقعد حتى إذا أوقفنا حاجز أو وقع نظر فضولي علينا من مشاة الطريق لظن أن في السيارة أحد المرضى. . . في حين كان انتباهنا أنا وسعيد منصرفاً إلى الطريق كأننا لانرغبُ في الكلام لا الخوف وحده يثير فينا

الصمت بل هيبة المشهد وامتداد الطريق الذي خطرت من مصابيحه أمامنا أحلام بعيدة بدت أقرب في يوم ما إلى المحال ثم تهادت على ضوء المصابيح تقودنا إلى بيتك حيث الأولاد!

مرتين أجيء بك من المشفى وكانت زوجتك في الشقّة تنتظر مع الأولاد وصولك...

ثم... قبل أن تصمت شهرزاد وتستفيق بغداد... كنتُ أعود بك إلى قيودك... حر في المساء سجين في النهار ... هكذا عرفناك. حر ومقيد في الوقت نفسه... .وكثيرا ما كان سعيد يمازحني فيسأل متهكما: ماعلاقتك بالنعمان بن المنذر؟ ويعود من غير أن ينتظر الجواب يردف: مزاحم البلداوي الذي جاء في يوم نحس النعمان... أنت الذي كفلته، والشرطي السكران هو النعمان بن المنذر... فماهو دوري أنا، ومن غير أن ينتظر جواباً يكمل تهكمه: ترى لو رجع الزمان بنا إلى حفنة خلت من السنين يوم كنا طلاباً في معهد المعلمين أول مانفعله هو أن نحول قصة البدوي والنعمان إلى مسرحية بدلاً من الصراع الطبقي والعمال ومشاكل المجتمع وكل ماكنا نهتم به من كلام فارغ... وشعارات رنانة... في الأقل نعد عدتنا لنتجنب الإعدام... لاتفاجأ ياصديقي إذا وجدت بعد طول غيبة أن كلَّ شيء لم يعد كما هو حيث ألفناه... لم يصبح النعمان وحده بعد ألفي سنة شرطياً مدمناً بل كل شيء تغير... أصبح الجندي طياراً... وبائع الثلج فريقاً في الجيش... والممرض طبيباً، والأبكم شاعراً، والشيوعي قومياً ... وهناك العجيب الغريب الذي لايمكن أن يصدقه عقل...

كل شيء تغير تحت الشمس وإن لم تزل الحياة في الأقبية كما هي...

اما عني أنا ياصديقي فبعد أن عرفتُ أن صحتك أخذت بالتحسن وأنهم نقلوك إلى مكان ما ثم انقطعت أخبارك عني.فإن زوجتي أبقت علاقة ما مع "أم أحمد" حتى نعرف عنك، وكانت زوجة سعيد تتابع أخبارك بالطريقة ذاتها حتى خامرتني فكرة الرحيل... هاجس يخفق بالخوف والأمل... قد أكون بريئاً اليوم ثم أصبح مداناً غداً... حر مقيد... ومقيد حر يتوزعني نصفا يومي بين الأسر والحرية... ياصديقي أنا ضمن مجتمع كبيرٍ مدان قبل أن يكون بريئاً وحتى تثبت براءتي تكون أية زلة أو خطأ عن حسن نية علامة تشير إلي بالجرم... فلم لا أرحل وأنفض عن كاهلي الخوف... كيف أثبتُ براءتي إذا بقيتُ في بغداد التي ماعرفت سوى التوتر والقلق وحر تموز اللاهب... توجهتُ إلى غرب جنوب الجزيرة العربية... وقعتُ عقد عمل مع الجامعة هناك... وفي يوم ما جاءت الفرحة عن بعدٍ، قيل إن عفواً رئاسياً صدر بحق السجناء فأطلق سراحك... بعد كل هذا التعذيب والتغييب والتحقيق وجدوك بريئاً... لم تكد الفرحة تسعني بل سعيتُ بكل جهدي أن أجد لك عملاً. لدي معارف يعملون في الجامعات يحتلون مراكز مهمة، وبهذه الطريقة اجتمعنا ثانية... في ذلك الوقت كان سعيد الزبيدي يرتب أموره ليوقع عقد عمل في جنوب شرق الجزيرة العربية. كان قريباً منا، وقد فكرنا أن نلتقي في العطلة... ووجدتك ترحب بذلك اللقاء

لكن من سوء حظي أن "أم أحمد" اتصلت بي ذلك الصباح وأخبرتني أنك في المشفى...

لم يطل لقاؤنا...

ولعلك نسيت كل آلامك حين شعرت بالحرية وتنسمتَ عبق الأمان.

لن يتهمَك أحد...

ولن تنقطع أخبارك عن العالم حتى تولد من جديد بقرار رئاسي... لتخرج بعدئذٍ من قمقمك فتجد كل شيء اختفى... ضيق يلحق الحارات وأزمات في كل مكان... حصار رهيب... لو كنا في صحراء جافة قاحلة لوجدنا خياماً تؤوينا مثل خيمة ذلك البدوي الذي سعى لحتفه... أناس يشحذون دواء... وآخرون يبحثون عن علاج للصرع... وقد رأيتُ بأم عيني في كربلاء رجلاً لايسأل زوار الحسين القادمين من الخارج عن نقود بل عن إبرة أنسولين، فحمدتُ الله أن ذلك الداء داهمني وأنا خارج البلد...

هذه اللحظة أذكرها كلما تناولتُ الأنسولين!

لقد خرجتَ ياصديقي من سجنٍ صغيرٍ مظلم بارد رطب إلى السجن الكبير... فكانت الشمس تلتقيك بعد فوات الأوان!

ومن سوء حظك أن ظلام النفق الذي دام أربع سنوات... والرطوبة ... والقمل والاوساخ... والقاذورات هجمت فجأة على جلدك... أكزيما... تورم بسببها

جسدك..قيح... صديد ولا ألم أيوب... النفق المظلم... الحوت... انبثق بشكل قيح على جسدك... رغوة الظلام الكريهة وعفونة النفق... كنت أقف على رأسك في المشفى وحدي هذه المرة... إسمح لي أني أعرضتُ عن أن أتصل بالعزيز سعيد فليس في الخبر مغامرة... زد على ذلك أني أعرف ارتباطه بالجامعة ومسوؤوليته الجديدة التي يمكن أن تسبب له حرجا لو استقل الطائرة وهو لما يزل حديث عهد بالعمل الذي يمارسه في ذلك البلد... ثم لِمَ أتصل به ليس في الأمر إعدام ولاسجن... ليست هناك من مغامرة ليحولها إلى تمثيلية مثل قصة البدوي والنعمان بن المنذر فيما لوعاد شابا يدرس في معهد المعلمين أنا وحدي - في مثل هذه الظروف التي لاتبشر بموت وقتل- أكفي لتلك المهمة من دونه... كنا نضحك حين ذكرناه بل كنت تغالب آلامك وتبتسم حين قلت لي كانك تؤكد مزحتي : دعه لمهمة أصعب ولاتزعجه!

وكانت المهمة الأصعب هي يوم داهمتك نوبة القلب. الشريان التاجي... ليس هناك من علاج لك في هذا البلد... وليس لديك مايكفي من النقود... وقفت عند رأسك ورأيتك تقارع الموت... ازداد وجهك شحوباً وبدا أكثر صفرة مما كان عليه يوم نقلوك إلى مشفى ابن النفيس مكبلاً بأغلالك وأنت تتشبث بالحياة كأنك تعاند الجلادين الذين عذبوك في جمهورية الرعب !

ومن حسن حظك أنك لم تمت في العراق حتى لايشمتَ بك الذين عذبوك...

ولم يلق بك الحوت بعيداً عن الساحل فلا ورق تلف به جسدك ولاملح تذره على قروحك التي غادرت جلدك إلى صدرك فعبثت به...

عندئذٍ لم يكن أمامي من خيار سوى أن أرفع سماعة الهاتف وأقول وجسمي كله يضطرب:

سعيد لقد ماتَ مزاحم!

9

نسيـان

«كيف ننسى أيام النحس؟»

صديقي العزيز لتطمئن روحك...

فأما سعيد فكان بإمكانه أن يرحل إلى بلد آخر غير أن فكرة الهجرة لم تكن لتراوده قط... بل آلى أن يكون قريباً من بغداد في سلطنة عمان!

كان يخشى من أن تعيقه المسافات البعيدة عن دجلة وأبي نواس فمايزال متشبثاً بدجلة وظلال النخيل...

كأنه يخشى أن تضيع منه بغداد إذا ابتعد عنها كثيراً...

يريد أن يراقبها عن قرب كأي بستاني يقف عند نافذة المنزل يتطلع وهو سارح مع أفكاره بأشجاره ونباتاته... وزهوره فيناجيها عن قربٍ وبعدٍ كل يوم...

وأما أنا فلم يعد لي مقام... مسحتُ فكرة العودة إلى البلد قبل أن تسقط دولة الرعب... خيار واحد أمامي هو الا أعود وقد هاجرتُ قبل أن يسقط النظام وتهوي بغداد تحت سنابك الجيوش الغريبة، ولاأخفيك سراً - إذا أخبرتك - أني

زرت بغداد العام الماضي، والتقيتُ عائلتك... كنا نتذكر المأساة التي مرت بك وقصة مشفى ابن النفيس والمغامرة.وكيف ارتبكتُ أمامك وأنت تمثل للمرة الأولى في حياتك!

زوجتي و "أم أحمد" ... سعيد كان معنا أيضاً هو وزوجته ... أتعرف أنه لايفكر بالتقاعد أظن الجو الجامعي والتدريس عماد حياته مثلما هو الماء للسمك كما يقول المثل العراقي... أخبرني أنه لايشعر بتعب العمل سوى مشاكل في القلب وسوف يأتي إلى المملكة المتحدة لإجراء عملية جراحية... في الجلسة ذاتها التفتَ إلى "ام أحمد" و"زوجتي" وخاطبهما بجملته الشهيرة وهو يلمزني:

إذا كان يحب أن يعدم فما ذنبي أنا.

هذه المرة ردت زوجته بدلا عني:

الصداقة تعني الحلوة والمرة فلماذا تبحث عن الحلو فقط ويغيب عن بالك المر.

فأكدتُ كلامها قائلاً:

وهل هناك شيء حلو فيّ حتى يشاركني فيه!

أيها العزيز مزاحم:

أنا لا أخاطبُ الموتى، بل الأحياء روحك ماتزال ماثلة أمامي، فأتحدثُ إليك كما أتحدثُ إلى نفسي.أحاول أن اتذكر كل الحوادث على الرغم من أن مرض السكر- كما قلتُ لك

- جعلني أنسى كثيراً حيث فقدتُ الكثير من قدرتي على التركيز... اليوم فقط قبل ساعات وصلتني مكالمة هاتفية من سعيد... لقد جاء إلى بريطانيا غرض إجراء عملية .... أنا في أقصى الجنوب والمشفى الذي يرقد فيه في شمال المملكة المتحدة... سأستقل السيارة غداً صباحاً إليه... وسوف أقفُ عند رأسه...

لابد أن التقيه.

أختصر في ساعات معه ذكريات سنوات طويلة...

وأستقبل عطر بغداد الذي يخفيه دائما بابتسامته التي لاتفارقه حتى في أحلك الظروف، فأنا أعرفُ صاحبي جيداً ربما أكثر من معرفتي بك وبنفسي... قد تبدو في الوهلة الأولى للقائك معه التعاسة على وجهه ثم تكتشف بعد لحظات أن ذلك الوجه المتعب بدا يشرق فتتحول كل تقاسيمه إلى عالم مليء بالفرح زاخر بالألوان، فنم ياصديقي مطمئناً في مثواك الأخير فمازلنا نحاول أن نلغي يوم النحس من حياتنا ونعيش للفرح وحده.

الخاتمة

يومـان أم يـوم؟

«قيل إن الحكاية لما تنته بعد....»

قيل إن النعمان بعد رجوع البدوي ألغى يوم النحس الذي يحتفل فيه بقتل الناس، اختفتْ أيام النحوس من حياته وبقيتْ أيام السعد. . .

لكن الأصدقاء الثلاثة حاولوا أن ينسوا أيام نحوسهم. . . فلم يقدروا، فقد أدركوا تماماً بعد طول معاناة أن بإمكانهم أن يلغوا كل شيء من ذاكرتهم تماماً. . . إذ يبدو محو الأشياء سهلاً لكن نسيانها لايتحقق قط لأنها إذا اختفت في اليقظة حنت فزارتْ في المنام. . .

وكيف لنا بأعين لاتنام. . .

هكذا ابتدأتْ ووفق تلك الصورة انتهتِ الحكاية.ورحم الله من مات من أبطال حكايتنا ومنَّ على الأحياء منهم بالعمر المديد!

انتهينا من قصة النعمان والبدوي

ورضا وسعيد ومزاحم البلدواي

في بلد الغربة نوتنغهام يوم 18/ 8/ 2013

إحالات المتن:

(1) الأستاذ الناقد الأديب الدكتور عبد الرضا عليّ له أكثر من مؤلف.

(2) المرحوم مزاحم أحمد البلداوي عمل في أكثر من جامعة منها :الموصل، وصلاح الدين، وجامعة الكوفة، وجامعة صنعاء، وحضرموت.

(3) الدكتور سعيد جاسم الزبيدي يعمل الآن أستاذاً في جامعة نزوى بسلطنة عُمان.

(4) حكاية النعمان والبدوي وردت في مجمع الأمثال للميداني 1/ 75 وفي أطروحتي للدكتوراه التي عنوانها " أساطير العرب قبل الإسلام وعلاقتها بالديانات القديمة ص 47" ذكرت من باب المقارنة حكاية النعمان وسابقة لها عند اليونان تتعلق بالمعنى نفسه لرجل اسمه فنطياس زمن ديونيسوس صاحب سرقوسة، وحين اطلعت على كتاب تكريم الدكتور عبد الرضا عليّ الذي أعده السيد ماجد الغرباوي وجدتُ أن الشاعر الأديب يحيى السماوي أورد حكاية النعمان والبدوي في مقدمة مقاله "ص 168" فاغتنمتها فرصة لتأليف رواية قصيرة عن ذلك الحدث.

(5) كان السعيد عميداً لكلية الآداب بجامعة البصرة وقتها، وكان يحمل شهادة الماجستير في الأدب الأندلسي وحدث أن تشاجرتُ عام 1972 مع موظف في كلية الآداب من كتبة التقارير فاتهمني بسب الجامعة والحكومة،وكاد السعيد يتخذ بحقي إجراءً لولا وقوف قسم اللغة العربية بجانبي - أذكر بهذا الصدد المرحوم الدكتور ناصر حلاوي، الدكتور زاهد العزي - ويبدو أن محمد مجيد السعيد أكمل دراسته وترقى كونه تكريتياً (من بيجي) إلى درجة رئيس جامعة الموصل بعد حصوله على الدكتوراه.

* كانت لمحمّد مجيد السعيد مواقف مشهودة لا تنسى حين عُيّن رئيساً لجامعة صدام للعلوم الإسلاميّة في تسعينيّات القرن الماضي،فقد رفض أمراً من ابن رئيس الجمهورية بجلد بعض الطلاب بحجة التطرف الديني، فتمرد على المنظمة الحزبية، وعدَّ مسألة الجلد انتهاكاً لشرف الجامعة.

(6) هو الدكتور طارق الجنابي رئيس قسم اللغة العربية/ كلية التربية/ جامعة الموصل.

(7) اعتادت حكومة الرئيس البكر والرئيس المخلوع فيما بعد أن تجعل في كل دائرة من دوائر الدولة ضابط أمن يكتب كل شاردة وواردة لدائرة الأمن العامة والدائرة الحزبية، وضابط أمن كليّة التربية في جامعة الموصل حينذاك رجل من الموصل اسمه كنانة الجادر.

المحتويات

تقديم أوّل 5

تقديمٌ ثانٍ 7

مدخل الحكاية: من قبل ومن بعد 11

1. التيه 13

2. الخبر 18

3. حرٌّ مكبَّلٌ 33

4. الضامن 28

5. لقاء 39

6. بعض من أضغاث 43

7. لقاء آخر 47

8. قبل الفجر أو الغروب 53

9. نسيان 59

الخاتمة: يومان أم يوم؟ 62